

التعليم في المدارس العربية الحرة و أبعاده الثورية في مدينة المدية في عهد الإحتلال الفرنسي.

✍ د/ شيكو يمينة

المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة-الجزائر

الملخص:

إن مدينة المدية كغيرها من مدن الجزائر كانت خاضعة لسيطرة الإحتلال الفرنسي , وكان مصيرها الثقافي مهّدا بفعل عملية تجهيل أبنائها ومسح شخصيتهم ومحاولة طمس تاريخهم.و بالمقابل واجه أبناء هذه المدينة ذلك الوضع عن طريق التعليم في المساجد والكتاتيب القرانية والمدارس العربية الحرة وحتى الفرنسية منها, للمحافظة على الهوية والروح الوطنية. وبالرغم من ضغوطات السلطة الفرنسية كانت تفتح مدرسة عقب غلق أخرى,بدءا من مدرسة سيدي سليمان أول مدرسة عربية حرة وبعدها مدرسة الرشاد, فالزوبيرية إلى مدرسة التهذيب.

تمهيد :

إن مدينة المدية كغيرها من مدن الجزائر كانت خاضعة لسيطرة الإحتلال الفرنسي , وكان مصيرها الثقافي مهّدا بفعل عملية تجهيل أبنائها ومسح شخصيتهم ومحاولة طمس تاريخهم.و بالمقابل واجه أبناء هذه المدينة ذلك الوضع عن طريق التعليم في المساجد والكتاتيب القرانية والمدارس العربية الحرة وحتى الفرنسية منها, للمحافظة على الهوية والروح الوطنية.و بالرغم من ضغوطات السلطة الفرنسية كانت تفتح مدرسة عقب غلق أخرى,بدءا من مدرسة سيدي سليمان أول مدرسة عربية حرة وبعدها مدرسة الرشاد, فالزوبيرية إلى مدرسة التهذيب.

أنواع التعليم :

إن التعليم في مدينة المديّة في عهد الإحتلال الفرنسي كان أربع أنواع :
التعليم في الكتاتيب القرآنية وهو مختص بتحفيظ القرآن فقط. والتعليم في المساجد وهو متنوع إلى حد ما يغلب على برامجه الطابع الديني من قرآن وحديث وفقه إلى جانب اللغة وشيء من الحساب. والتعليم في المدارس العربية الحرة ما يسمى بـ : « المَدْرَسة » وكان متنوعا. إلى جانب ذلك توجد المدارس الرسمية الفرنسية من التعليم الإبتدائي إلى الثانوي.

التعليم في المساجد والكتاتيب :

إن التعليم في الكتاتيب القرآنية في عهد الإحتلال الفرنسي كان منتشرا في العديد من الأحياء، حيث يتم فيه ختم القرآن حفظا على يد شيوخها. غير أن المتخرج منها لا يفقه شيئا مما حفظه، ولذلك لم يكن مثل هذه المؤسسات تشكل خطرا على المحتل الفرنسي فتركها وشأنها.

غير أن التعليم في المساجد كان مختلفا لما فيه من تنوع، وكان تحت الرقابة الفرنسية. فقد كان يتم تقديم دروس في القرآن وتفسيره، والحديث وعلومه، واللغة والنحو، والفقه وعلومه، وعلم الحساب. وهذه عناوين بعض المخطوطات التي كان يتم الإعتماد عليها في ذلك وهي موجودة حاليا بمسجد الشيخ عبد الله بن مصطفى بن دالي بالمديّة :

- القرآن وتفسيره :

- مخطوط : الجواهر الحسان في تفسير القرآن للشيخ عبد الرحمان

الثعالبي (بدون تاريخ).

- الحديث وعلومه :

- السبع المثاني: من كتاب صحيح البخاري (شمل باب الحج).

- شرح متن محمد عبد الواحد بن عاشر الأندلسي المسعى : " الدر الثمين والمورد المعين في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين " .
- إرشاد الساري لصحيح البخاري (الجزء السادس) تأليف الإمام أحمد بن أبي بكر القسطلاني .
- اللغة والنحو :
- مخطوط في النحو والصرف .
- مخطوط " كتاب النكاح " مستخرج من شرح القسطلاني على صحيح البخاري .-
- مخطوط في المواريث : " الحواشي على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني " . كتبه الشيخ الخضر بن محمد بن الجيلالي الشرقاوي .
- مخطوط في الإجارة والبيع لمحمد الخرشي الملكي .
- مخطوط في الإجارة والبيع منسوب إلى الشيخ إبراهيم بن قنور . في فقه الذكاة (الأضحية) للشيخ عبد الباقي الزرقاني (بدون تاريخ)
- مخطوط : " كتاب العقد المنظم للحكام " تأليف الفقيه القاضي عبد الله محمد بن سلمون المالكي .
- " الدر الثمين والمورد المعين في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين " تأليف محمد بن أحمد ميارة المالكي .
- علم الحساب :

نشأة المدارس العربية الحرة في مدينة المدية :

إن لمدينة المدية سابقة مهمة في ذلك بفضل أعيانها ممن أدوا مهمة رئيسية انطلاقاً من المدارس القرآنية مع أول مدرسة في غرب مدينة المدية بحي شعبي هي مدرسة سيدي سليمان في زاوية سيدي سليمان بحي سيدي الصحرأوي . وهي عبارة عن " بيت بنتها الأمة " على حد تعبير أهلها . وكان يدير شؤونها الشيخ محمد بن تشيكو - رحمه الله - . وكانت هذه المدرسة من

الناحية الرسمية - حسب الرخصة المسلمة لها من طرف الإدارة الفرنسية - تهتم بتحفيظ القرآن فقط. لكنها في الواقع كانت تدرس مواد مختلفة : دينية وعلمية واجتماعية، الأمر الذي جعل المحتل الفرنسي يترصدها ويأمر بإغلاقها سنة 1944م. وغادر الشيخ بن تشيكو إلى الجزائر العاصمة أين عين مفتيا حنفيا بالجامع الكبير.

و من تلاميذه الذين واصلوا تلك المهمة من بعده (الشهيد الهادي العباسي، بلقاسم القندوز، محمد بن حفري، المهدي بن حجر، وعبد القادر مناصر - رحمه الله -). فقد أكمل هؤلاء المسيرة وقاموا بالتدريس بمدرسة سيدي سليمان من سنة 1944 إلى 1947م. ويذكر أحد تلامذتها (الشيخ إسكندر مختار الذي درس فيها بين 1943 و 1945م) أنهم كانوا يدرسون موادًا أخرى غير القرآن خفية عن المستعمر. فبمجرد الإحساس بتواجده كانوا يتظاهرون بحفظ القرآن فقط وإخفاء كل ما له علاقة بغير القرآن. وفي هذه الفترة كانت المدرسة تحت إدارة الأستاذ صوالحي الرحماني - رحمه الله - وهو أحد خرجي المدرسة الثعالبية.

ميلاد المدرسة الزوبيرية :

لقد عرفت الجزائر قبل افتتاح هذه المدرسة ظروفًا صعبة ناجمة عن أحداث 8 ماي 1945م. فبالرغم من حلة الإحباط الشاملة وخيبة الأمل الكبيرة إلا أنه لم يتوقف أولئك الرواد وراحوا يستنهضون مدرسة الخير والصالح من أعيان مدينة المدية وهموا بإنشاء مدرسة الرشاد التي صارت فيما بعد الزوبيرية نسبة إلى أحد المتبرعين " أمحمد الزوبير " - رحمه الله - ، وكان المتبرع الثاني هو عبد القادر بن ملوح وهو صاحب الدار (دار بن ملوح) التي أصبحت فيما بعد مدرسة الزوبيرية بعد أن تنازل عنها صاحبها وعوضه عنها أمحمد الزوبير بمبلغ مالي.

تكوين جمعية التربية والتعليم للمدرسة الزوبيرية :

إن تأسيس مدرسة يتطلب تنظيما وتمويلا، ومثل هذه المدارس العربي الحرة لا يشجع عليها المحتل الفرنسي، فاجتمع عدد معتبر من سكان المدينة بقاعة سينما (ركس) في منتصف سنة 1947م بغرض تكوين جمعية تدير المدرسة. وفي ذلك الإجتماع تم انتخاب أعضاء الجمعية من السادة التالية أسماؤهم :

- عبد القادر زويدي رئيسا.
 - نور الدين بوشنافة أمين المال.
 - أمحمد الزوبر، عبد القادر بن ملوح، الطاهر حاج عيسى، مصطفى فخار، فضيل اسكندر، عبد القادر علواني، الحاج محمد بن دالي إبراهيم، أحمد حنطابلي، محمد تشوكش، عبد القادر بن كريكس.
- و تم بالمناسبة جمع مبالغ مالية من تبرعات المحسنين والتي نفقت فيما بعد في تجهيز المدرسة. التي فتحت أبوابها للسنة الدراسية 1947 / 1948م بعدد محدود من الأقسام بين 6 و 8 أقسام شملت البنين والبنات على حد سواء. ومن أوائل المعلمين الذين باشرُوا التعليم في المدرسة نذكر السادة الشهيد حاج حمدي أحمد، الشهيد المختار زبيري، الشهيد مختار مقدم، محمد وعلي بن طاهر، بلقاسم قندوز، الطاهر بركاني، المهدي بن حجر، بن يوسف سليمان، محمد بن حفري، أحمد مزيجي، عبد القادر مناصر. رحمة الله عليهم جميعا والأستاذ الفاضل عبد القادر بن مولود أطلال الله في عمره. الذي اشتغل أيضا بمدرسة التهذيب، مدرسا ومديرا لها في نفس الوقت والتي فتحت أبوابها سنة 1953م وكلف فيما بعد من طرف مسؤولي جيش التحرير بإدارة المدرسة الزوبيرية التي قد أغلقت وحلت جميعها والإشراف على برنامج التعليم والتنسيق بين المعلمين كما تم تكليف السيد المهدي بن حجر بالتسيير المالي للمدرسة. وذلك في أعقاب إضراب الطلبة الشهير في 19 ماي

1956م وما نتج عنه زن مقاطعة الطلبة والتلاميذ للنظام الفرنسي الإستعماري مما أدى إلى التحاق عدد واسع بالتعليم العربي الذي كانت توفره مدرسة التهذيب وحدها حيث كانت الزويرية قبل هذا التاريخ مغلقة كما سبق الحديث.

و من المفيد أن نذكر أسماء مسؤولي جيش وجهة التحرير الوطني الذين كانت لهم إتصالات مباشرة ومنتظمة مع إدارة المدرسة ومعلميها من سنة 1956م إلى 1962م وهم على التوالي : الشهيد ابراهيم العيد 1956، الشهيد محمود باشن المجاهد العربي المسعودي 1957، الشهيدان الحافظ بن حجر والتوفيق ولد التركي، والمجاهدين هني بلقاسم 1958 والشهيد امربن هلال (سي حمدان)، أحمد حاج حمدي والعربي تيتري واحمد البركاني 1960 والرائد سي الأخضر بورقعة والرائد محمد بوسماحة والمجاهد الشريف زايباك. والمجاهد محمود طوبال الصغير وأحمد البركاني 1961/1962.

نوعية التعليم ومستوياته في المدرسة الزويرية :

لقد كان نوع التعليم عربيا خالصا، وفيه مستويات من السنة الأولى إلى السنة السادسة. فقد قامت المدرسة بمهمة التدريس العربي وقواعد اللغة والعلوم الإسلامية وعلم الحساب والرياضيات والإجتماع والطبيعة وتاريخ الجزائر والتاريخ الإسلامي للحفاظ على مقومات الشخصية العربية الإسلامية التي حاولت فرنسا طمسها.

و من بين تلك البرامج التي تعمل على غرس روح الوطنية والإسلامية في نفوس التلاميذ مادة الأناشيد الوطنية والتمثيلات خاصة في مناسبة ذكرى المولد النبوي، وأناشيد الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة نذكر منها على سبيل المثال المطلع التالي حسب شهادة الشيخ اسكندر الذي علّم فيها.

هل يجاب	صوت بعيد المدى
بالرقاب	ناداكم للندى
يا شباب	إلى الفدى إلى الفدى
بالخلود	بيعوا حياة الفناء
لا يهاب	من لا يبالي الردى

وغيره من الأناشيد الوطنية.

نوعية المعلمين بالمدرسة الزويرية وتكوينهم :

إن النخبة من المعلمين في المدرسة الزويرية وغيرها من المدارس الحرة في مدينة المدية، بعضهم تخرج من مدرسة بن باديس في قسنطينة، وبعضهم من مدرسة الشبيبة في الجزائر العاصمة وآخرون من مدرسة تلمسان، كما وجد من تعلم القرآن فقط.

دور المدرسة الزويرية خلال الثورة :

لقد تأثر العديد من المعلمين والتلاميذ الكبار بالثورة والتحقوا بصفوف جيش التحرير الوطني أمثال المختار الزبير، المختار مقدم، أحمد الحاج حمدي، ومن التلاميذ الشهداء محفوظ بن تركية، بن يوسف نابي، كمال زميرلين، ومن المجاهدين نذكر الزبير ولد إمام، خير الدين تيتري، عبد السلام مزيغي، عبد القادر بن مولود. وكانت إدارة المدرسة في كل مرة تعوض هؤلاء المعلمين الذين التحقوا بصفوف الثورة بمعلمين من ضمن التلاميذ المثقفين أمثال: محفوظ طبال، عبد الحميد ولد خاوة، الحسين مازوني، محمد مدني زراوين، زينب العماري، صالحة زيري، وكانت الشرطة الإستعمارية تقوم بتفتيش ومراقبة المدرسة باستمرار وتسجيل أسماء المعلمين والتلاميذ ومواد التدريس. ذلك بصفة مباغطة فكان المعلمون والتلاميذ يخفون الكتب بسرعة

ويمسحون السبورات ويطلبون من التلاميذ إخراج المصاحف وتلاوة القرآن. وإلى جانب مساهمات المدرسة الزوبيرية المباشرة وغير المباشرة في الثورة قامت الهيئة الإدارية للمدرسة الزوبيرية بإيفاد بعثات عديدة من الطلبة المتفوقين إلى كل من المعهد الباديسي بقسنطينة وجامع الزيتونة بتونس.

وعلاوة على ذلك فإن معلمي المدرسة وبعض تلامذتها ساهموا بقسط وافر في تنظيم شبكة جمع الإشتراكات والتوعية المستمرة في أوساط الجماهير ففي سنة 1961/1960 أسند مسؤولوا الثورة بالمنطقة إلى هيئة المدرسة مهمة تنظيم وتأطير الإضرابات والمظاهرات. وقد كللت مهمتهم بالنجاح. وتعظيما لجهودها واعترافا بجورها قام مسؤولوا الثورة بالمنطقة عشية الإستقلال جويلية 1962 بزيارة المدرسة الزوبيرية وكان على رأس الوفد الرائد سي لخضر بورقعة والرائد يوسف بوخروف والنقيب سي بلقاسم هني وعدد كبير من المجاهدين وضباط الولاية الرابعة التاريخية.

توال عطاء المدرسة بعد الإستقلال حيث تم إدماجها في النظام العام مع توجيه تلامذتها الكبار في السن لمواصلة الدراسة في المشرق العربي وهم الخلف الذين حملوا مشعل التعليم والتربية بعد الإستقلال.

موقف الإستعمار من المدارس الحرة في مدينة المدية :

لم يرق للمحتل الفرنسي هذا النوع من التعليم، فكان يقوم بتضييق الخناق عليه بشتى الوسائل نذكر على سبيل المثال، صدور قانون فرنسي في سنة 1956 يجبر تحويل بعض التلاميذ من المدارس الحرة إلى المدرسة الرسمية الفرنسية، وهذا القانون ينص على : " كل جزائري موظف عند الحكومة الفرنسية مهما كانت وظيفته عليه تسجيل أبنائه في مدارس فرنسية وإلا سيطرده من العمل ". وفي هذا الصدد نذكر شهادة السيد رابح بن عودة المولود في سنة 1950م في مدينة المدية وهو أستاذ متقاعد في مادة

الإنجليزية في التعليم المتوسط، يذكر أنه كان مع أخ له يكبره بثلاثة سنوات حولوا من المدرسة العربية الحرة إلى مدرسة فرنسية فوجدوا أنفسهم في نفس القسم بالرغم من فارق السن (ثلاث سنوات) طيلة المسار الدراسي الابتدائي.

ولحل مشكلة فارق السن أصدرت فرنسا قانونًا آخرًا في صالح التلاميذ كبار السن للإنتقال من المستوى الابتدائي إلى المتوسط. وجد امتحان الإنتقال (Examen de Sixième) في جانب امتحان الإنتقال إلى الصف السادس، يسمح لكبار السن إذا نجحوا في هذا الإمتحان (Examen de cinquième إلى الصف الخامس الإنتقال مباشرة إلى السنة الثانية متوسط (5^e)، دون المرور بالسنة الأولى متوسط (6^e)

دور النخبة الجزائرية المتخرجة من المدارس الفرنسية في نشر اللغة العربية في المدارس الفرنسية :

لقد وجدت في الجزائر العاصمة مؤسسات تعليمية فرنسية، يتكون فيها التلاميذ ليعينوا بعدها للعمل في المحاكم في مجال القضاء عبر المدن الأخرى. وتعليمهم كان مزدوج اللغة (عربية وفرنسية).

و السبب في ذلك يرجع إلى أن المحاكم تقتضي اللغتين، من أجل الأهالي الجزائريين. غير أن بعض المتخرجين فضلوا اللجوء إلى تعليم اللغة العربية بعد تخرجهم فغيروا مسارهم. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى شهادة حية لمختار اسكندر الذي اشتغل في المديرية بالتعليم معهم بعد تخرجهم إذ يذكر أن المدرسة الثعالبية في الجزائر العاصمة بعد العشرينيات أنشأتها فرنسا لتخريج القضاة للعمل في المحاكم الشرعية، نذكر منه (عبد الرزاق بن تركية و حسان زميرلي) فقد بن تركية للعمل في محكمة معسكر غير أنه رفض الرجوع

للمدية للإشتغال بتعليم اللغة العربية في المدارس الرسمية الفرنسية التي كانت مادة مبرمجة لمدة ساعتين في الأسبوع فقط.

أما حسان زميرلي فقد درس في خميس مليانة التي عين فيها ثم رجع إلى المدية.

فقد رفضوا تلك المناصب (القضاء) إيماناً منهم أن تقديم ساعتين في الأسبوع أحسن من لا شيء، لتعليم الجزائريين لغتهم للمحافظة على أصالتهم وهويتهم. Richart و المدارس الرسمية الفرنسية في مدينة المدية أين درس مثل هؤلاء هي مدرسة ريتشار وتسمى حالياً مدرسة بلجباس (علماً أنه هذا الأخير كان يعلم اللغة العربية فيها ويتقن اللغتين) .

و هذه المدرسة خاصة بالفرنسيين فقط وأبناء بعض أعيان مدينة المدية ولا يتجاوز عددهم أربع أو خمس تلاميذ لا أكثر.

وتسمى حالياً مدرسة حاج حمدي، وكانت خاصة بالأهالي الجزائريين Bichart ومدرسة Les Indigènes.

أن الفرنسيين كانوا Richart ويذكر الشيخ مختار اسكندر الذي كان يدرس اللغة العربية في مدرسة يحثون أبناءهم على تعلم اللغة العربية إلى درجة أنهم أحياناً تفوقوا فيها على العرب. ويضيف أنكان من المشجعين على ذلك بدليل أنه كان يطلب Richart مدير تلك المدرسة الذي سميت باسمه منه عدم التكلم أو اتخاذ أي إجراء مع التلاميذ الفرنسيين المشوشين في مادة اللغة العربية، بل إرسالهم إليه مباشرة ليقوم هو شخصياً بمعاقتهم عقاباً جعلهم ملتزمين داخل القسم ومحترمين لمعلم اللغة العربية.

غير أنه تجدر الإشارة في هذا الصدد أن الفرنسيين لما أرادوا إدخال اللغة العربية في المدارس وضعوا شروطاً تعجيزية أمام معلمها وهذه الشروط هي شهادة البكالوريا أو تطويع من المدرسة الزويرية، حسب ما يذكر مختار اسكندر الذي لم تكن له أي شهادة من ذلك، فاضطر للإلتحاق بالمدرسة الثعالبية بفضل تزكية من الشيخ الفوضيل ومحمد بن تشيكو مفتي المسجد

الكبير بالعاصمة ليتكون مدة ستة أشهر هناك. وهو نظام خاص ومحصور في دروس معينة لتكوين وتخرج المعلمين، ظهر هذا النظام بعد سنة 1954. فعين بعد تخرجه معلما لمادة اللغة العربية في مدرسة "ريشار"، وقبلها كان تلميذا ثم معلما في المدرسة الزوبيرية.

و نخلص مما تقدم إلى أن تاريخ مدينة المدية في عهد الإحتلال الفرنسي كان حافلا بجهود وإسهامات معتبرة، من أجل المحافظة على الأصالة الدينية والإجتماعية والوطنية بسلاح العلم والمعرفة والوقوف ضد تحديات همجية الإحتلال الفرنسي.

فبالرغم من كل ضغوطات هذا الأخير إلا أن مؤسسات التعليم العربي الحر، على بساطتها وإمكاناتها المادية المحدودة تمكنت من ترسيخ روح الوطنية وإعداد رجالها بتلقينهم ثقافة الحفاظ على مقومات الهوية والشخصية الوطنية.

المصادر:

- الرجوع إلى شهادات حية للشيخ مختار اسكندر: وهو باحث ومؤرخ ومن المعلمين الأوائل في عهد الإحتلال الفرنسي ثم مستشار تربوي في فترة الإستقلال، مازال على قيد الحياة.
- الشيخ راح بن عودة : أستاذ في مادة اللغة الإنجليزية متقاعد، مازال على قيد الحياة.
- مجلة أشير : مجلة فصلية تصدرها مديرية الثقافة لولاية المدية، العدد 3، 4 مارس 2005، مقال أحمد بوكراس.